في الأدب الدرامي

١٣ ـ الرواية المسرحية

في التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

الدراما في فجر القرون

كان لهذا النوع أوائل في أدب الأغريق واللاتين ظهرت في أشكال مختلفة وأسماء متعددة ، وظلت محافظة على وجودها أثناء العصور الوسيطة وبعد عصر النهضة في ثوب الرواية الجدية الهزلية ، ولكن الدراما بمعناها الحديث لم تعرف إلا في القرن الثامن عشر حين كتب (لاشوسيه) مدرسة الأمهات ، و(ديدرو) رواية الابن الطبيعي ، و (سيدين) رواية الفيلسوف بغير علمه ، و (بومارشيه) رواية الأم المجرمة ، و (فولتير) روايتي نانين والطفل المبذر . وقد كان هؤلاء المؤلفون يقتبسون موضوعات رواياتهم من الحياة الحضرية والمعيشة المنزلية ، ويملأونها بالحساسة المتصنعة والآراء الفلسفية والحكم الخلقية في لهجة تارة تكون بكائية وتارة تكون خطابية . على أن هذه الدراما لم تلبث أن نزلت الى مكان المأساة العامية (الميلودرام) ، وهي دراما تسير بالموسيقى وتفيض بالضربات المسرحية العنيفة ، والمواقف الشديدة المخيفة ، والعمل الروائي المعقد ، وتدين بنجاحها الى إثارة الشعور وإهاجة الوجدان . ثم أدرك الدراما الخمول وأخلقها الترك فاحت من المسارح حوالى سنة ١٨٣٠ حتى جاء أرباب المذهب الابتداعي فنفخوا فيها من روحهم وبعثوها الى الحياة في شكل جديد ، واختاروها ميداناً للمعركة الحامية بينهم وبين رجال المذهب الاتباعي ، فرفع هوجو لواءها وشرع منهاجها في مقدمة كرومويل سنة ١٨٢٧ وجعل ميزتها الظاهرة امتزاج الجد والترفع بالهزل والمجون على نحو ما تجد في روايات شكسبير . ثم أخذ هذا المذهب الحديث يتحلل من قواعد المذهب القديم ، ولا سيما قانون الوحدات الثلاث كما ترى ذلك ظاهراً في روايات الزعيم كهرنانى وكرمويل وماريون دلورم وروى بلاس وبيرجراف الخ . على أن سهم الابتداعيين قد طاش ، وأملهم في اصلاح المسرح قد كذب . فقد تجد في روايات هوجو درراً من الشعر الرصين ، وغرراً من المقطوعات البليغة ، وصوراً من المواقف التي تسترق الشعور وتملك القلب ، ولكنك تجد بجانب ذلك البناء الواهن والاحالة القبيحة والعمل المرتبك والتاريخ المشوه ، فضلا عن أنه أحل الطباق والمقابلة محل النظر واللاحظة ، وملأ المسرح بالانماط الغريبة من الناس كقاطع الطريق الشهم (هرنانى) ، والخادم الوزير (روى بلاس) ؛ ولم يجد في طبقة السراة إلا أنماطاً ممقوتين أو مجرمين ، أما الطبقة السفلى فهي عنده مستودع العواطف الكريمة والأخلاق القويمة . ثم إن الدرامة الابتداعية (Romantique) خلت خلو الميلودرام من درس العواطف وتحليل الأخلاق ، وتعمدت حدود النطق في سير العمل ، وسترت كل ذلك بسيل من الحوادث الخارقة ، والمسائل المعقدة ، والمفاجآت المدهشة ، وما يتخلل ذلك من المبارزة والقتل والتسمم والخطف والتعرف . لذلك لم يصطبر الناس على هذه الدراما طويلا فملوها وأغفلوها ، وحلت محلها في المسارح والقلوب في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر اللهاة الاجتماعية ، أو اللهاة الحديثة ، أو اللهاة البكية ، أو الدرامة الواقعية . وهي في الحقيقة طور من أطوار الدراما التي بدأها (ديدرو) ورفع سمكها اسكندر دوماس الصغير ، وأميل أوجييه وفيكتوريان ساردو . تستمد من الدراما التاريخية عناصر الجد ، ومن ملهاة (اسكريب) فن التعقيد ، ومن قصة بلزاك درس العادات وتحليل الأخلاق ، وتدور موضوعاتها على بحث المسائل المتعلقة بالمال والأسرة ، وما ينجم من صراع الطبقات ، وصدام الجماعات ؛ وتعنى على الأخص بوصف العادات والسعي في تهذيبها وإصلاحها . وكان لاسكندر دوماس الفضل في تطبيق المذهب الواقعي على هذه اللهاة أو الدرامة بتأليفه ذات الكاميليا (La dame aux camelias) وهي درامة جريئة الفكرة ، طريفة البحث ، جديدة الشكل ، أحدثت في المسرح انقلاباً خطيراً كان له أثره ونتيجته حتى اليوم . لأن المؤلف كان أول من زين المسرح بالأثاث الجديد ، وأظهر الأشخاص في اللباس العصري ، ومثل البيئة الحاضرة في شكلها الحقيق ، فهو خالق اللهاة الحديثة (La comedie modernee) كما خلق من قبلها اللهاة العلمية (Piece à thése) وهي مبنية على نظرية سماها المسرح النافع

(Le théatre utile) ملخصها أن الكاتب المسرحي يجب أن يبادر الى حل المشاكل الأجتماعية على المسرح وإلا كان مضحكاً مهرجاً . يجب أن يعرض على الناس ما يشغلهم من مشاكل الأسرة ، ويثقلهم من أحوال المجتمع ، ثم يناقش هذه المسائل ، ويحل هذه المشاكل بتغليب الخير على الشر ، وإقرار الحب في النفوس مقر المال

وظل المسرح اليوم في فرنسا جارياً على سننه المشروع في منتصف القرن التاسع عشر في شيء من البساطة والسهولة . وأشهر الملاهي الدرامية في العهد الأخير ما كتبه الأستاذ جول لمتر إما تحليلاً للعواطف (كالثائرة) و (الغفران) ، وإما زراية على ذميم العادات (كالنائب ليفو) . وكذلك الأستاذ هنري لاقادان عني بدراسة المجتمع الفرنسي الحديث ، وعرض لما ينجم عن المنافسة بين طبقاته من المشاكل المعضلة والمسائل العويصة في رواية (أمير أوريك) . ثم المنطق الجبار بول هرفيو فقد عالج المشاكل الاجتماعية التي تتولد من الزواج والطلاق ، ونحا في بحثها منحى اسكندر دوماس الصغير في رواياته العلمية (Piece à thése) ولكنه كان أكثر منه بساطة وأشد جفاء . كتب في ذلك ملاهيه المشهورة ، وهي التيه (Le dédale) ، والكلبتان (الكماشة) (Les tenailles) ، وقانون الرجل (La loi de l'homme) ، واعرف نفسك (Connais-toi) ، وشوط القبس (La course du flameau) ولا تزال هذه الرواية الى اليوم أبلغ روائعه وواسطة بدائعه . ثم الأستاذ (بريو) مؤلف القباء الأحمر (La Robe rouge) ، والأستاذ فرنسوا كوريل مؤلف الذمية الجديدة ، ونشوة الحكيم والأستاذ (الفريد كابو) مؤلف الحظ (La veine) والطير الجريح ، والأستاذ (هنري برنستين) مؤلف السارق ، والسر ، وشمشون . ولا نريد أن نسترسل في ذكر أسماء الكتاب المعاصرين ، فأكثرهم لا يزالون يؤلفون ويرزقون . وإنما ذكرنا منهم من سبق لنقول لك إن ما ألفوه قد يطلق عليه أحياناً اسم الدرامة ، وأحياناً اسم الملهاة الدرامية (Comédie dramatique) أو الجدية ، والاسم الثاني أدق لما ذكرناه من الفرق بين النوعين

هذا مجمل ما أتى على الدرامة من الأطوار في فرنسا . أما في أسبانيا فالمسرح قوي محض ، ولد في الكنيسة وظل على صفته الأمية حتى جاء عصر النهضة ، فجنح بعض الكتاب الى بناء المسرح الأسباني على الطراز الأغريقي ، ولكن ذوق الجمهور أحالهم عن ذلك القصد وصرفهم عن محاكاة المآسي الأتباعية (Classique) فسخروا من قانون الوحدات الثلاث . وجمعوا في الرواية الواحدة بين الحوادث المضحكة والمواقف الفزعة ، وبين سراة الطبقة العليا وصعاليك الطبقة الدنيا . ثم كانوا يعقدون العمل ويفخمون الأسلوب ، حتى سرت من روحهم نفحة الى كورني ، وكان الشرف محور مآسيهم ، وموضوع حوادثهم ، ومكان قوانينه الصارمة منها مكان القدر من مآسي الأغريق . على هذه القواعد والصفات كتب نابغتهم الخالد لوب دي ڤيجا Lope de Véga (١٥٦٢ — ١٦٣٥) مآسيه ، وهي لا تقل عن ألفي مأساة ، يدخل منها في باب الدرامة الروايات التاريخية (ككشف العالم الجديد) وروايات (سان سكر مَنْت) كوارث السماء . وقد تميز هذا الكاتب بالخيال الخصب ، والقريحة المتقدة ، والتنوع البديع ، والقدرة المعجزة على تصوير الأخلاق ، ولا سيما أخلاق النساء . وكان همه أن يعرض الحوادث دون أن يشرح أسبابها ، ويمثل الحياة الحقيقية دون أن يطرز أثوابها . ثم يليه في النبوغ والأثر (كالدرون دي لاباركا) (١٦٠٠ — ١٦٨٠) . وقد بقي من دراماته اثنتان وسبعون درامة أشهرها (الحياة حلم) و (كرامة المولى) . وأما في انجلترا فقد ولد مسرحها في الكنيسة أثناء العصور الوسيطة كما كان الأمر في فرنسا وأسبانيا ، وكذلك لم يقو تقليد الكتاب والشعراء لآداب النهضة على الحيلولة بين الدرامة الحديثة وبين الانتشار والتقدم . ففي القرن السادس عشر جاء (مارلو) فهز النفوس وحرك المشاعر بمآسيه (ادوار الثاني) و (يهودي مالطة) و (وموت الدكتور فوست وحياته) . ولكن شكسبير ظهر فأخفت ذكره ووضع قدره . وكان القدماء من أرباب المذهب الاتباعي يذكرون شكسبير بالسوء ، ويتناولونه بالنقد حتى لقبه ڤولتير : (بالمتوحش السكران) . أما أرباب المذهب الابتداعي فيرونه مثال الفن الرواني ، ورسول الشعر التمثيلي . وقد سردنا لك فيما سبق طائفة من مآسيه في بعضها ما يشبه الدرامة ، ولكن دراماته الحقيقية هي : صاع بصاع ، وتاجر البندقية ؛ وقطعه المقتبسة من تاريخ انجلترا ، كالملك حنا ، وريشار الثاني ، وهنري الرابع ، وهنري الخامس ، وريشار الثالث ،

ودرامات شكسبير[1] على الجملة ضعيفة البناء ، بعيدة الأمكان ، متكلفة الأسلوب . وقد أراد أن يمثل فيها مناحي الأنسانية كلها ، فجمع بين العظيم الرفيع والعامي الخليع والمضحك الماجن ، وجعل العواطف الرقيقة الوادعة بجانب الأهواء العنيفة الفاجعة ، ولم يقنع بتمثيل الحوادث مجردة ، بل حرص على أن يصور الأهواء والعواطف التي صدرت عنها وتولدت منها

وأما في المانيا فليسنج (١٧٢٩ — ١٧٨١) هو خالق مسرحها القومي : وقف بين مواطنيه وبين المأساة القديمة ، فحال بينهم وبين تقليدها ، ودعا الناس قبل الابتداعيين الى الأخذ عن شكسبير ، والى وضع الأساس لبناء المأساة العصرية . وأشهر مآسيه (منا دبرنهلم) و (ناتان الحكيم) و (أمليا جالوتي) . أما جيته فقد جمع بين الذهن القديم والعبقرية الحديثة ، وقد ظهر ذلك جلياً في دراماته ، وأشهرها (جوتز دبرليشنجن) و (تركاتو تاسو) و (إجمنت) و (فوست) . فأما (جوتز) فهي صورة قوية — وإن تكن غير جلية — لألمانيا في أواخر العصور الوسيطة . وموضوعها أن السيد جوتز لا يعترف لأحد بالسلطان غير الأمبراطور ، فهو يشعل الثورة في رؤوس الفلاحين ، ويقودهم لمحاربة النبلاء والكهنة ، ثم ينتهي أمره بالأسر والسجن في قاع مظلم بقية حياته . وأما درامته فوست فهي مجده وخلوده تجدها غامضة في جملتها ولكنها رائعة في تفصيلها . موضوعها أن الدكتور فوست يُبرمه الحياة ويُبغضه الوجود ويكربه فراغ نفسه فيتعاطى السحر ، ولكن اليأس يحتوشه فيدفع به إلى الانتحار . وبينما هو متردد بين الحياة والموت إذ يفجأه قرع الأجراس المؤذنة بدنو عيد الفصح فيذكره بقيامة المسيح ويأفكه عن عزمه المشئوم ، إلا أن الشك يعاوده ، فيدفعه إلى محالفة الشيطان فيبيعه نفسه على أن يمتعه بزهرة الحياة ونعيم الدنيا . فيؤتيه الشيطان من كل شيء إلا السعادة ، فيشرف على الموت ، إلا أن مارى تدركه فتنجيه

وعلى طريقة جوت كتب صديقه شيلر دراماته الرائعة كدرامة اللصوص ، ودون كارلوس ، ووليم تل . وأنبه الكتاب الروائيين في ألمانيا اليوم هو (جيرار هوبتمان)

ومن فحول الدرامة في العصر الحديث الكاتب النرويجي (جوهان إبسن) (١٨٢٨ — ١٩٠٦) وكان ينزع في مآسيه الدرامية نزعة فلسفية اجتماعية ، فهي من الدرامات العلمية أو الرمزية ، وقد سما فيها بقوة الفرد وهمته إلى أبعد غاية وأرفع منزلة حتى ولو ناقض ذلك الدين والتقاليد . أشهر دراماته بيت العروس (La maison de poupée) ، والأرواح ، والكنار الوحشي

يتبع

(الزيات)

(١) كان شكسبير يسمي بعض رواياته مآسي ، وبعضها ملاهي . ولكن معنى هاتين الكلمتين كان يختلف إذ ذاك اختلافاً شديداً عما نريده منهما الآن . فقد كانوا يطلقون الملهاة على كل رواية خيالية الموضوع سواء أضحكت أم لم تضحك ، والمأساة على كل رواية حقيقية الموضوع سواء تأثر بالخيال أم لم يتأثر

كستور الشتاء

لكي تقي نفسك شر برد الشتاء القادم

إلبس الكستور المصنوع في بلدك

من القطن المصري الخالص

بأيدي عمال مصريين

أصناف متعددة ورسومات جميلة متنوعة

أطلب كستور

شركة مصر للغزل والنسج

المصنوع بمصانعها بالمحلة الكبرى

من تجار المانيفاتورة بأنحاء القطر ومن محلات

شركة بيع المصنوعات المصرية